قالوا: سكتَّ؟

للأستاذ أمجد الطرابلسي

قالوا: سكتَّ عن الغناء؟ فقلت: لا   في مسمع الأكوان رَجْعُ غنائي
غنّيتُ في أُذُن النهار سعادتي   وهمستُ في قلب الظلام شقائي
ووَعَتْ أناشيدي الطيورُ ورددتْ   همسي الخفيَّ كواكبُ الظلماء
فسلوا الجداولَ عن غناء مياهها   هل غيرُ ألحاني غناءُ الماء
وسلوا الخمائلَ عن ندى أزهارها   هل غير دمعي لؤلؤُ الأنداء
والورد والشفق المخضَّب والقطى   هل هُنَّ إلا من وَميضِ دمائي
والبحر هذا الهادرُ الصخّاب هل   أمواجُه إلا صدى أهوائي
والريح هل هبّاتها بعد الونى   إلا انبعاثي بعد موت رجائي
الليلُ والأرماسُ بعضُ كآبتي   والفجرُ والأعراسُ بعضُ هنائي
والبيدُ صورةُ فرحتي ومباهجي   والبيدُ صورةُ وَحشتي وفنائي
والرعد يحكي ثورتي في قصفه   وزفيفُ أجنحة الطيور رضائي
ولقد ملأتُ من الفتون جوانحي   وطويت فوق فتونه أحنائي
وكرعتُ أكوابَ الجمال ولم أزل   أشكو له ظمئي وحرَّ ظمائي
أحييتُ ما شاء الهيام وشاء لي   قلبٌ غرِت بحبِّه أعدائي

* * *

قالوا: سكتَّ عن الغناء؟ فقلت: لا   ما في يد الينبوع حبسُ الماء
خُلِقَ الربيع مصوّراً في كفّه   قلمُ الأديب وريشة الوشّاء
ما دغدغ الأغصانَ أو لمسَ الربى   إلا ضحكنَ تضاحكَ العذراء
ورفلنَ في أفوافِ وَشْيٍ هانئٍ   متبرّجاتٍ أو ذواتِ حياء
فسلوه: هل يسطيعُ إبداعَ الأسى   نغمَ الشتاء الواجم البكّاء؟
والزهر، هل يسطيعُ في أَلَقِ الصِّبا   ضنّاً بنفحٍ عاطرٍ وذكاء؟
والشمس هل تسطيعُ في رَأْدِ الضحى   ألّا تجودَ بباهرِ الأضواء؟
لكنّ هَزارَ الروض ليس بهيجه   للشدو صمتُ دُجُنّةٍ نكراء

ما حيلةُ الشادي الرقيقِ غناؤه   عسامعٍ تلتذُّ بالضوضاء؟!
يشدو فيعصر في اللحون فؤادَه   كيما يثوبَ ببسمة استهزاء!...

* * *

قالوا: سكتَّ عن الغناء؟ فقلت: بل   عن أن أريقَ على الجحودِ وفائي!
أمّا الغناء فقد جرت نغماتُه   تجري دمي الدفّاقِ في أعضائي
حسبي من الألحان قلبٌ لم يذقْ   بين الأضالع هدأةَ الإغفاء
غرِدٌ كما هبَّ النسيم وتارةً   كالزعزعِ المجنونةِ الهوجاء
رحْبٌ تموجُ به اللحونُ كأنّها   من كلِّ أرضٍ جُمِّعتْ وسماء
أبداً ترفُّ به ملائكةُ الهوى   هنا بمزمار وذاك بناء
ومواكبُ الجنّانِ تعصف وسْطَه   وتضجُّ تحتَ الرايةِ الحمراء
ما ضرّني إن كنتُ عندي شاعراً   ألّا يعدّوني من الشعراء
لا كان قلبي إن طلبتُ بذوبه   من كفِّ هذا الدهرِ بعضَ جزاء!
لا كان شعري إن رفعتُ لواءه   بين الأنامِ على رُفات إبائي!
يستعبدونيَ ويحهم! وأنا الذي   حطّمَ القيودَ تمرُّدي ومضائي
حلّقتُ أرمقُ من بعيدٍ ساخراً   ذلَّ العبيدِ الراسفين ورائي
هم يصنعون قيودَهم بأكفِّهم   وأنا أمدُّ لجِلّقٍ جناحي
عشقوا القيودَ كأنّما هي حليةٌ   ذهبيةٌ في معصمِ الحسناء
واستعذبوا سوطَ القويِّ يؤزّهم   في كلِّ صبحٍ ناعمٍ ومساء
فتمرّغوا شغَفاً على أقدامه   كي لا يضنَّ بهذه النعماء
لولا غرامُ القيد لم تكنِ الدُّنا   هذي السجونَ تضيقُ بالسجناء
لولا التلذُّذُ بالأذى ما ألهبتْ   تلك السياطُ ظهورَ الضعفاء
يا من يريدُ تحرّراً من قيده   هلّا بدأتَ بنفسك الشوهاء
هي بالقيودِ مؤودةٌ لكنّها   ما إن تحسُّ لجرّها بعناء
إنّي نظرتُ إلى العبيدِ فلم أجد   رقّاً كرقِّ النفس والآراء
فاشمخ بأنفك رفعةً وتمرُّداً   وذرِ النفاقَ ولا تدِن برياء
واترك لصيحاتِ الطبول فراغَها   واسخر من العظماء والكبراء
فإذا قيودُكَ قد هوتْ من نفسها   عن ساعدَيك هشيمةَ الأشلاء

* * *